أصفهان معقل الأدب العربي في ايران

ونظام الدين الأصفهاني [1]

لمدينة أصفهان عروس بلدان إيران مقام سام ومكانة جليلة في تاريخ الأدب العربي، وتاريخ الحفاظ على اللغة العربية والعروبة منذ الفتح الاسلامي حتى العصور المتأخرة، ولقد خيل إليّ أنها من المدن المظلومة في التاريخ، وكان ينبغي لمؤرخي الأدب العربي من العرب وغيرهم أن يخصوها بمباحث تحكي الدور الذي قامت به في قصة الأدب العربي حتى في عصور المغول التي انتعشت فيها اللغة الفارسية، وانتهض فيها الأدب الفارسي انتهاضاً عاماً شاملاً، فتأخذ المكان اللائق بها مع الكوفة والبصرة وبغداد في تاريخ الأدب العربي.

لقد لحظت هذه الخصيصة وهذه المزية من خصائص أصفهان ومزاياها بعد بحث طويل وتأمل وإنعام نظر، وتحقيق دقيق، في تاريخها وسير أدبائها وشعرائها، وأعيانها وأعلامها، وذهبت مذاهب شتى في تعليل ذلك وتحليله، ولا أشك — وما أكثر شكوكي — في قوة العنصر العربي الذي استوطنها بعد الفتح الاسلامي لصحة هوائها وجودة أرضها وكثرة خيراتها ووفرة مكاسبها، وتنوع محاسنها، واختلاف فضائلها، التي ذكرها الأديب مُفضل ابن سعد المافروخي الأصفهاني في كتاب محاسن أصفهان، وياقوت الحموي في معجم البلدان، وغيرهما من الأدباء وعلماء البلدان كالقاضي القزويني.

قال القزويني في كتابه « آثار البلاد وأخبار العباد » : « أصفهان مدينة عظيمة من أعلى المدن ومشاهيرها، جامعة لأشتات الأوصاف الحميدة، من طيب التربة وصحة الهواء

(١) « محاضرة ألقيت على طلاب كلية المعقول والمنقول من جامعة طهران بدعوة من عميدها وموافقة من رئيس الجامعة ».

وعذوبة الماء وصفاء الجو وصحة الأبدان ، وحسن صورة (كذا) أهلها وحذقهم في العلوم والصناعات حتى قالوا : كل شيء استقصى صناع أصفهان في تحسينها (كذا) عجز عنها صناع جميع البلدان قال الشاعر :

لست آسى من أصفهان على شي ... سوى مائها الرحيق الزلال

ونسيم الصبا ومنخرق الري ... ح وجوّ صافٍ على كل حال

... ولصناعها يد باسطة في تدقيق الصناعات ، لا ترى خطوطاً كخطوط أهل أصفهان ولا تزويقاً كتزويقهم وهكذا صناعهم في كل فن ، فاقوا جميع الصناع ، والفخار يعمل كوزاً وزنه أربعة مثاقيل يسع ثمانية أرطال ماءاً وقس على هذا جميع صناعاتهم »[1] .

ومن الأدلة القوية الدالة على شدة العنصر العربي فيها قديماً شيوع المذهب الحنبلي فيها ، والمذهب الحنبلي أقرب المذاهب الى الطبيعة العربية ، كما أن المذهب الحنفي أقرب المذاهب إلى الطبيعة التركية والمذهب الامامي والمذهب الشافعي أقرب المذاهب إلى الطبيعة الفارسية قديماً وحديثاً . ونريد بالطبيعة المزاج العقائدي المتكون من المربى والتاريخ والمجتمع . قال النجاشي في كتابه رجال الشيعة في ترجمة ابراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الثقفي أبي اسحاق : « أصله كوفي . . وانتقل إلى أصفهان وأقام بها وكان زيدياً أولاً ثم انتقل الينا ويقال إن جماعة من القميين ... وفدوا اليه وسألوه الانتقال إلى قمّ فأبى ، وكان سبب خروجه من الكوفة أنه عمل كتاب المعرفة وفيه المناقب المشهورة والمثالب فاستعظمه الكوفيون وأشاروا عليه بأن يتركه ولا يخرجه . فقال : أي البلاد أبعد من الشيعة ؟ فقالوا أصفهان . فخلف لا أروي هذا الكتاب إلا بها ، فانتقل اليها ورواه بها ثقة منه بصحة ما رواه فيه[2] .

(١) آثار البلاد وأخبار العباد « ص ٢٩٦ — ٢٩٧ » طبعة دار صادر ببيروت سنة ١٣٨٠ هـ = ١٩٦٠ » .

(٢) رجال النجاشي « ص ١٢ طبعة بمبي » .

وفي الربع الأول من القرن الثالث للهجرة كان الخصيب بن أسلم على أصفهان فاستقدم اليها أديباً راوياً ولغوياً بارعـــاً هو أبو (نصر وجاء في بعض الأخبار أنه أبو حاتم والكنى تتعدّد للواحد عندهم) أحمد بن حاتم الباهلي أحـد تلامذة الأصمعي المشاهير وراوي كتبه وكان بصرياً كأستاذه ومنحرفاً عن العلويين كشيخه الأصمعي وكأغلب أهل البصرة أيامئذٍ وكان أبو حاتم الباهلي قد أخـــذ الأدب ولغة العرب عن الأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد الأنصاري وأقام ببغداد وربما حكى الشيء بعد الشيء عن أبي عمرو الشيباني ، ذكره ياقوت الحموي في معجم الأدباء والزبيديّ في طبقات النحويين قال ياقوت : « حكي عن الأصمعي أنه كان يقول : ما يصدّق علي إلا أبو نصر الباهلي ـ يعني أحمد بن حاتم ـ وكان ثقة مأموناً ... وذكره حمزة الاصبهاني في كتاب أصفهان قال : ولما أقدم الخصيب بن أسلم أبا محمد الباهلي صاحب الاصمعي إلى أصبهان نقل الباهلي معه مصنفات الاصمعي وأشعار شعراء الجاهلية وشعراء الاسلام مقروءة على الاصمعي وكان قدومه أصبهان بعـد سنة (٢٢٠) فأقام شهراً ثم تأهب منها للحجّ فدخل الى عبد الله بن الحسن وسأله أن يدلّه على رجل يسلم اليه دفاتره إلى أن يرجع ، فقال : عليك بمحمد بن العباس ـ وكان مؤدب أولاد عبد الله ابن الحسن ، مقبول القول ـ فسلم الباهلي اليه دفاتره وخرج ، فانتسخ محمد بن عبـــد الله الناس ، فقدم الباهلي وقامت قيامته ودخل الى عبد الله بن الحسن وذكر له ما كان يأمل في دفاتره من التكسّب بها ، فجمع له عبد الله بن الحسن من أهل أصبهان عشرة آلاف درهم ، ووصله الخصيب بعشرين ألفـــاً فتناولها ورجع إلى البصرة »[1] ، قال ياقوت أيضاً : « ومات الباهلي فيما ذكر هو وأبو عبدالله بن الأعرابي وعمرو بن أبي عمران الشيباني في سنة (٢٣١) وقد نيف على السبعين ... وله من التصانيف كتاب الشجر والنبات وكتاب اللبأ واللبن وكتاب الابل وكتاب أبيات المعاني وكتاب اشتقاق الأسماء وكتاب الزرع والنخل

(١) « معجم الأدباء ١ : ٤٠٥ ـ ٤٠٧ طبعة مرغليوث الأولى » .

وكتاب الخيل وكتاب الطير وكتاب ما تلحن فيه العامة وكتاب الجراد »[1] . وقد ذكر هذه الكتب أيضاً قبل ياقوت ابن النديم في فهرسته[2] ، وذكر له القفطي في إنباه الرواة على أنباه النحاة كتاب الشجر والنبات وكتاب الابل وكتاب الخيل وكتاب ما تلحن فيه العامة وكتاب الزرع والنخل وكتاب أبيات المعاني وقال : « حدث عن الباهلي إبراهيم الحربي الشيخ الصالح ـ رض ـ وأبو العباس ثعلب وكان ثقة »[3] .

ونحن لا نشك أن انتقاله إلى اصفهان كان موافقاً لهواه لما يعلم من أحوال أهل اصبهان القدماء من التمسك بالعربية والعروبة المتحزبة المتعصّبة ، ولو لم تكن على هواهم لاجتواهم فمن قدماء الحنابلة في اصبهان أبو مسعود أحمد بن الفرات الضبي الرازي ثم الاصفهاني ، قال أبو الحسن محمد بن أبي يعلى بن الفراء في طبقات الحنابلة : « ذكره أحمد بن حنبل بالحفظ واظهار السنة باصبهان »[4] . ونسبه الضبي يدل على أنه عربي من قبيلة ضبّة أصحاب الجمل المحاربين للامام علي ـ عليه السلام ـ .

ومنهم إبراهيم بن محمد بن الحارث الاصبهاني ، من أصحاب الامام أحمد بن حنبل[5] ، وعلي بن أحمد بن الفرات أخو أحمد بن الفرات الذي ذكرته آنفاً[6] ، وأبو يحيى الفضل ابن عبدالصمد الأصفهاني المرابط بطرسوس ، ومن حنابلة أصفهان بنو منده الاصفهانيون وفيهم المحدث والمؤرخ والحافظ ، فأبو زكريا يحيى بن عبد الله بن منده الأصفهاني المتوفى سنة ٤٤٥ هو صاحب تاريخ أصفهان ، ولمعرفة مشاهير الحنابلة الأعيان ، كما يسميهم

(١) المرجع المذكور .

(٢) الفهرست « ص ٨٣ طبعة مصر » .

(٣) الانباه « ١ : ٣٦ » .

(٤) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى الفراء « ١ : ٥٣ طبعه مصر »

(٥) المرجع المذكور « ١ : ٩٦ » .

(٦) المرجع المذكور .

المؤرخون ، ينبغي تصفّح سيرهم في طبقات الحنابلة لأبي الحسين بن الفراء الذي قدمتُ ذكره ، وذيله لابن رجب البغدادي ، وإذ أشرنا إلى شيوع المذهب الحنبلي في أصفهان فنحن نريد جمهور العامـــة الذين كانت الحياة الاجتماعية ، تعتمد على أحوالهم ومنازعهم الدينية ، ومناحيهم المذهبية ، وقد ذكر المؤرخون أن أبا سهل الصعلوكي الأصفهاني أصلاً ومولداً الفقيه الشافعي المفسر الأديب المتكلم النحوي المتوفى بنيسابور سنة ٣٦٩ قد كان ترك أصفهان وانتقل إلى نيسابور معدن الشافعية سنة ٣٣٧ وأقام بها إلى حين وفاته ، فكانت إقامته بها اثنتين وثلاثين سنة ، وهو العصر العلمي التدريسي لهذا العالم الـكبير [١] .وذكر المؤرخون أيضاً ان الأستاذ أبا بكر محمد بن الحسن بن فورك الاصفهاني الأصولي المتكلم الأديب الواعظ المؤلف المصنف كره الاقامة باصفهان فقدم العراق وأقام فيه مـــدة يدرس العلم ثم توجه إلى الريّ ثم راسله أهل نيسابور والتمسوا منه التوجه اليهم فورد نيسابور وأنشؤوا له بها مدرسة وبلغت مصنفاته في أصول الفقه ومعاني القرآن نحواً من مئة مصنف ودُعي إلى غزنة فذهب اليها ثم عاد إلى نيسابور وقيل إنه ســـمّ في الطريق قبل بلوغه إياها فمات سنة ٤٠٦ [٢] .

إن هجرة هذين العالمين وأمثالهما وإن كانت مصحوبة بدعوة أو التماس أو ترغيب لا تخلو من بواعث مذهبية واجتماعية واقتصادية ناشئة عن المـكان والزمان والحـكم والسلطان ، قال شمس الدين بن خلـكان في ترجمة عبد الوهاب بن علي الثعلبي الفقيه المالـكي المتوفى بمصر سنة ٤٢٢ نقلا من كتاب الذخيرة لابن بسام الأندلسي : « ونبت به بغداد كعادة البلاد بذوي فضلها وعلى حكم الأيام بمحسني أهلها ، فخلع أهلها وودّع ماءَها وظلَّها وحُدّثت أنه شيعه يوم فصل عنها من أكابرها وأصحاب محابرها جملة موفورة ، وطوائف

(١) الوفيات « ٢ : ٣٢ طبعة بلاد العجم » .

(٢) الوفيات « ٢ : ٥٦ ــ ٥٧ » .

كثيرة وأنه قال لهم : « لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كلّ غداة وعشية ، ما عدلت عن بلدكم لبلوغ أمنيّة وفي ذلك يقول :

سلام على بغداد في كل موطن ... وحُق لها مني سلام مضاعفُ
فوالله ما فارقتها عن قلى لها ... وإني بشطي جانبيها لعارفُ
ولكنها ضاقت علي بأسرها ... ولم تكن الأرزاق فيها تساعف
وكانت كخِلّ كنتُ أهوى دنوه ... وأخلاقه تنأى به وتخالِفُ

وله أيضاً :

بغداد دار لأهل المال طيبة ... وللمفاليس دار الضنك والضيق
ظللتُ حيران أمشي في أزقّتها ... كأنني مصحفٌ في بيت زنديق [1]

وقال الخطيب البغدادي في ترجمته : « كتبتُ عنه وكان ثقة ولم نلق من المالكيين أحداً أفقه منه وكان حسن النظر جيد العبارة وتولى القضاء ببادرايا وباكسايا وخرج في آخر عمره إلى مصر فمات بها » [2] ، وقال ابن خلكان : « كان فقيهاً أديباً شاعراً صنف في مذهبه كتاب التلقين وهو مع صغر حجمه من خيار الكتب واكثرها فائدة وله كتاب المعونة في شرح الرسالة وغيره وعدة تصانيف » [3] .

إذن لماذا هاجر عبد الوهاب المالكيّ إلى مصر ؟ لا أشك في أن السبب هو تضاؤل شأن المذهب المالكي ببغداد والعراق وقلة الاقبال على دراسة فقهه قلة تشبه الصد والاعراض ، وقد استمر ذلك التضاؤل حتى لقد استقدم المستنصر بالله العباسي في الثلث الأول من القرن السابع للهجرة لمدرسته المستنصرية فقيهاً مالكياً من البلاد المصرية للتدريس فيها ،

(١) الوفيات « ١ : ٣٢٩ ـ ٣٣٠ » .
(٢) تاريخ بغداد للخطيب « ١١ : ٣١ » .
(٣) الوفيات « ١ : ٣٢٩ » .

ولم أزل أعجب من تهيؤ وجود الطلاب الذين كانوا يدرسون فقه ذلك المذهب في تلك المدرسة بذلك العصر .

وهذه الأحوطة التي لحظتها في تاريخ أصفهان الاجتماعي لا تعني أنها كانت خالية من المتمذهبين بالمذاهب الأخرى كالشافعية والحنفية والامامية ، بل تعني الأغلبية المذهبية ، وهي النحلة الحنبلية ، التي كان استبدادها واعتدادها بنفسها من الأسباب الكثيرة التي التي حملت النحلة الاسماعيلية الباطنية على أن تتحداها في نواحي أصفهان بشخصية ابن عطاش وأتباعه وغيرهم من الاسماعيلية الفتاك ، كما هو مبسوط في التواريخ .

ولما بغت الدولة السلجوقية الحنفية المذهب على يد طغرل بك السلجوقي وعون وزيره عميد الملك منصور بن محمد الكندري الحنفي المذهب ، وانتهض المذهب الشافعي على يد نظام الملك الطوسي تضاءلت سلطة الحنابلة باصبهان ، والناس على دين ملوكهم ، ويمنون بالملوك الأملاك والوزراء والأمراء لا الملوك وحدهم ، وانتقل النزاع بين الشافعية والحنفية ، قال ياقوت الحموي : « وقد فشا في أصفهان الخراب في هذا الوقت وقبله في نواحيها لكثرة الفتن والتعصب بين الشافعية والحنفية ، والحروب متصلة بين الحزبين ، فكلما ظهرت طائفة نهبت محلة الأخرى وأحرقتها وخربتها ، لا يأخذهم في ذلك إلّ ولا ذمة ومع ذلك فقلّ أن تدوم بها دولة سلطان أو يقيم بها فيصلح فاسدها ، وكذلك الأمر في رساتيقها وقراها التي كل واحدة منها كالمدينة »[1] .

وقد رجحت كفة الشافعية باصبهان بعد انتقال بني الخجندي اليها ، والخجنديون منسوبون إلى مدينة خجندة ، من مدن ما وراء النهر على شاطىء نهر سيحون ، ومنطقة ما وراء النهر من بلاد المناطق الحنفية ولم تكن مألفاً للمذهب الشافعي ، ولا عبرة بالأفراد المعدودين يومئذ في الشافعية أو الجمهرات المتضافرة كما في الشاش ، قال ياقوت الحموي : « شاش قرية

(١) معجم البلدان في مادة « أصفهان » .

بالريّ النسبة اليها قليلة ولكن الشاش التي خرج منها العلماء و نسب اليها خلق من الرواة والفصحاء فهي بما وراء النهر ثم ما وراء نهر سيحون ، متاخمة لبلاد الترك وأهلها شافعية المذهب وإنما أشاع بها هذا المذهب مع غلبة مذهب أبي حنيفة في تلك البلاد أبو بكر محمد بن علي بن اسماعيل القفال الشاشي ... » [1] .

قال عز الدين بن الأثير : « أصل بيت الخجندي من مدينة خجندة بما وراء النهر ينتسبون إلى المهلّب بن أبي صفرة [الأزدي] وكان نظام الملك قد سمع أبا بكر محمد بن ثابت الخجندي يعظ بمرو فأعجبه كلامه ، وعرف محله من الفقه والعلم ، فحمله إلى أصفهان وصار مدرساً في مدرسته بها ، فنال جاهاً عريضاً ودنيا واسعة ، وكان نظام الملك يتردد اليه ويزوره [2] » . اهـ والمقصد الذي أراه في إقرار نظام الملك الشيخ الخجندي الواعظ في أصفهان هو تقويته الجبهة الشافعية بقوة جديدة بعد تأسيس المدرسة النظامية فيها ، وذلك باسناد التدريس إلى فقيه واعظ عربي الأصل من قبيلة الأزد ظاهراً .

ومنذ أواخر العصر الخامس أعني القرن الخامس للهجرة صارت الكلمة النافذة باصبهان لبني الخجندي الشافعيين ، وازداد هذا المذهب قوة بانتقال الخلفاء العباسيين إلى المذهب الشافعي في ذلك العصر أعني القرن الخامس ، وقد ذكر أبو المظفر يوسف بن قز أغلي المعروف بسبط ابن الجوزي في تأريخه مرآة الزمان أنّ أبا محمد عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي الحنبلي المتوفى سنة (٦٠٠) لما دخل أصفهان وقف على كتاب لأبي نعيم الاصفهاني الحافظ مؤرخ أصفهان ألفه في معرفة الصحابة فانتقد عليه في مئة وتسعين موضعاً ، فطلبه بنو الخجندي ليقتلوه فاختفى وخرج من أصفهان في إزار [3] .

(١) المرجع المذكور في « شاش » .

(٢) الكامل في التاريخ « ١٠ : ١٢٨ طبعة مصر » .

(٣) مختصر مرآة الزمان « ٨ : ٢١ » طبعة حيدر أباد الدكن » .

ولست في سبيل البيان عن أعيان أصفهان وإنما أردت أن أوضح بما قدمت من هـذا التمهيد بعض الأسباب التي حدت أصبهان على التمسك بالعروبة والعربية قديماً ، حتى لقد كان الشعراء الذين ينظمون بالفارسية قلما تجد منهم أصبهانيين ذوي دواوين شعر بل ندر ذلك حق الندور ، إن المفضل المافروخي ذكر في كتابه محاسن أصفهان الفقهاء العلماء والأدباء ، والشعراء بالفارسـية بعشرات [1] ولـكن أين أشعارهم وآثارهم ودواوينها ؟ لست عالماً بتأريخ الأدب الفارسيّ ولـكني لم أسمع ولم أقرأ إلا اسم جمال الدين عبد الرزاق الاصفهاني الشاعر ، واسم ابنه كمال الدين إسماعيل الاصفهاني الشاعر وأسماء من ذكرهم زكرياء بن محمد القزوينيّ ، قال القزويني في الـكلام على أصفهان : « وأما أرباب العلوم كالفقهاء والأدباء والمنجمين والأطباء فاكثر من أهل كل مدينة سيما فحول الشعراء أصحاب الدواوين ، فاقوا غيرهم بلطافة الـكلام وحسن المعاني وعجيب التشبيه وبديع الاقتراح مثل رفيع فارسي دبير وكمال زياد وشرف شفروه وعز شفروه وجمال عبد الرزاق وكمال اسماعيل ويمن مكي فهؤلاء أصحاب الدواوين الـكبار ، لا نظير لهم في غير أصفهان » [2] .

وقال ابن الفوطي : « كمال الدين أبو الفضل إسماعيل بن أبي محمد عبد الله بن عبد الرزاق الاصفهاني الأديب الفاضل ، أحد فضلاء الدهر ونبلاء العصر ، ممن يُضرب به الفضل في الفطنة والذكاء ، وديوانه يشتمل على عشرين ألف بيت من الشعر السائر ، الفصيح النادر ليس لفضلاء العجم شبهه وهو صاحب رسالة القوس التي لم يصنّف في فنّها مثلها ، ابتدأ فيها [بقوله] : بسم الله الرحمن الرحيم ، ويسألونك عن ذي القرنين ، قل سأتلو عليكم منه ذكرا ، إنّا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا [3] . وهي بديعة في فنها ، وختمها بأبيات أولها :

من صنعة الباري لديّ مطلبة ... عجفاء تبصر في الضلوع عظامها

(١) كتاب محاسن أصفهان بالفارسية « ص ٢٣ ـ ٢٤ » .

(٢) آثار البلاد واخبار العباد « ص ٢٩٦ ـ ٢٩٩ طبعة دار صادر ببيروت » .

(٣) سورة الكهف الآية ٨٣ .

واستشهد على يد التتار باصفهان سنة خمس وثلاثين وستمائة »[1] . اهـ . وأشعاره مشهورة عند الفرس .

هذا وإننا ليعنينا حقاً الدور الذي قامت به أصبهان في قصة الأدب العربي ومن أجله عقدنا هذا الكلام وبسطنا هذا التمهيد ، وأول من نذكر من الأدباء الاصبهانيين المبرزين ذوي الآثار الأدبية الخالدة أبو الحسن محمد بن أحمد ابن طباطبا العلوي الحسني ، قال ياقوت الحموي في معجم الأدباء : « شاعر مفلق ، وعالم محقق ، شائع الشعر ، نبيه الذكر ، مولده بأصبهان وبها مات في سنة ٣٢٢ وله عقب كثير بأصبهان فيهم علماء وأدباء ونقباء ومشاهير ، وكان مذكوراً بالذكاء والفطنة وصفاء القريحة وصحة الذهن وجودة المقاصد ، معروف بذلك مشهور به وهو مصنف كتاب (عيار الشعر) وكتاب تهذيب الطبع وكتاب العروض لم يسبق إلى مثله ، وكتاب المدخل في معرفة المعمى من الشعر وكتاب في تقريظ الدفاتر ، ذكر أبو عبد الله حمزة بن الحسن الاصبهاني ـ يعني مؤرخ أصبهان ـ قال : سمعت جماعة من رواة الأشعار ببغداد يتحدثون عن عبد الله المعتز أنه كان لهجاً بذكر أبي الحسن ابن طباطبا . مقدماً له على سائر أهله[2] ... » ثم بسط سيرته نقلا من كتاب شعراء أصبهان لحمزة الأصبهاني المذكور آنفاً وأورد أشعاراً من أشعاره ، وقال ابن عنبة في كتابه عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب : « وأما أحمد الرئيس ابن طباطبا ويكنى أبا عبد الله فأعقب من رجلين أبي جعفر محمد وأبي إسماعيل إبراهيم ، وجمهور عقبه يرجع إلى أبي الحسن الشاعر الأصفهاني وهو محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد المذكور صاحب كتاب نقد الشعر وغيره[3] » . وكتاب نقد الشعر أعني عيار الشعر أشهر كتب النقد البارع الفني للشعر العربيّ ومن أقدمها إن لم يكن أقدمها ، وقد اتخذه نقاد الشعر إماماً لهم ومنهاجاً ،

(١) تلخيص معجم الألقاب « ج » الترجمة ٢٩١ من ألقاب الكاتبي ، طبعة لاهور » .

(٢) معجم الأدباء « ٦ : ٢٨٤ » .

(٣) عمدة الطالب « ص ١٥٣ طبعة الهند » .

على ما هو مثبت في كتاب الموشح لأبي عبيد الله المرزبانيّ ، وورد في كتاب العمـــدة في صناعة الشعر ونقده تأليف أبي علي الحسن بن رشيق القيروانيّ وفي كتب أخرى ، وقد طبع كتاب عيار الشعر بمصر سنة ١٩٥٦ قام على طبعه الأستاذ طه الحاجري والأستاذ محمد زغلول سلام ، وقدماه بمقدمة موجزة في بيئة المؤلف الأدبيـــة العربية الأصفهانية وهو كتاب صغير الحجم كبير الفائدة .

ونذكر بعد أبا الفرج علي بن الحسين الأموي المرواني الاصفهاني العلامة النسابة الأخباريّ الأديب الحفظة المؤرخ الناقد المؤلف المصنف صاحب الأغاني ومقاتل الطالبين وغيرها وهو وإن لم ينشأ في أصفهان ، يدلّ نسبه على أن أصفهان كانت ملاذاً لبعض بني أمية في أيام فتك بني العباس وتنكيلهم بهم ، وكثير من الأصفهانيين كانوا ينتسبون بنسب « القرشيّ » وهو عندي من وسائل تستر بني أمية أيام الإرهاب والاضطهاد والنكال التي كان يأتيها اعداؤهم كائنين من كانوا ؛ حتى لقد ذكر ابن الفوطيّ في كتابه « تلخيص مجمع الآداب المرتب على معجم الأسماء في معجم الألقاب » أن عماد الدين أبا عبد الله محمد بن محمد بن حامد الكاتب الأصفهاني كان قرشي النسب [١] ولكنه لم يرفع نسبه إلى فرع من فروع قريش ، وقال شمس الدين الذهبي في ترجمة بعض الأصبهانيين في تذكرة الحفاظ : « معمر بن عبد الواحد ابن رجاء بن عبد الواحد بن محمد بن الفاخر الحافظ أبو أحمد القرشيّ العبشميّ السمرقندي الاصبهاني المعدل الواعظ [٢] » على حين أن تاريخ ابن الدبيثي كان قد ذكره باسم « معمر بن عبد الواحد بن رجاء بن عبد الواحد بن محمد بن الفاخر بن أحمـــد بن أبي القاسم القرشيّ الاصفهاني الواعظ [٣] » ، فالقرشيّ في تاريخ ابن الدبيثي قرشي عبشمي في تاريخ الذهبي

(١) تلخيص معجم الألقاب « الجزء الرابع في لقب عماد الدين » ، ووزارة الارشاد والثقافة بسورية قائمة بطبع هذا الجزء من الكتاب بتحقيقنا وتعليقنا .

(٢) تذكرة الحفاظ « : ١١٠ طبعة حيدر أباد الدكن الأولى » .

(٣) المختصر المحتاج اليه من تاريخ ابن الدبيثي « اختصار الذهبي » نسخة المجمع الورقة ١١٠ » .

والعبشمي من عبد شمس بن عبد مناف والد أمية الأكبر جدّ الأمويين .

وفي عصر بني بويه كان متوقعاً أن تقل حماسة العروبة الاصبهانية ولكنّ لسان حالها كان ناطقاً بقول شاعرها أبي سعيد الرستميّ :

إذا نسبوني كنت من آل رستمٍ ولكنّ شعري من لؤي بن غالب

قال الثعالبي في اليتيمة : « لم تزل أصفهان مخصوصة من بين البلدان باخراج فضلاء الأدباء ، وفحولة الكتاب والشعراء ، فلما أخرجت الصاحب بن عباد أبا القاسم وكثيراً من أصحابه وصنائعه وصارت مركز عزّه ومجمع ندمائه . ومطرح زوّاره استحقت أن تدعى مثابة الفضل ، وموسم الأدب ، وإذا تصفحت كتاب أصبهان لأبي عبد الله حمزة بن الحسين الاصفهاني وانتهيت إلى ما أورد فيه ذكر شعرائها وشعراء الكرج المقطعة عنها وسياقة عيون أشعارهم ومُلح أخبارهم ـ وذكر أسماء خمسة وثلاثين شاعراً ـ ثم تأملت هذا الباب من كتابي هذا وقرأت ما ينطق به من ذكر شعرائها العصريين وغرر كلامهم كعبدان الاصبهاني المعروف بالخوزيّ وأبي سعيد الرستمي وأبي القاسم بن أبي العلاء ، وأبي محمد الخازن وأبي العلاء الأسديّ وأبي الحسين الغوريّ حكمت لها بوفور الحظ من أعيان الفضل ، وأفراد الدهر وساعدتني على ما أقدره من حسن آثار طيب هوائها وصحة تربتها وعذوبة مائها في طباع أهلها وعقول أنشائها [1] » .

وذكر من الشعراء العصريين عبـــداناً الاصبهاني المعروف بالخوزي وأورد له شعراً شاعراً وافراً ، وذكر بعده أبا محمد عبد الله بن أحمد المعروف بالخازن وبعـــده أبا العلاء الأسـديّ وأبا الحسن الغوريّ [2] » . إن قصة الأدب العربي في أصفهان ما انفكت في العصر البويهي تقدّم أعلام الأدباء والشعراء ومنهم أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي

(١) يتيمة الدهر ، ٣ : ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، طبعة الصاوي .

(٢) المرجع المذكور ، ٣ : ٢٦٨ ـ ٣٠٨ .

الاصفهاني مؤلف شرح الحماسة الجليل المطبوع أخيراً ومؤلف كتاب الأزمنة والأمكنة الفريد المطبوع بالهند، ومؤلف غيره من الشروح الأدبية والنحوية، وقد توفي سنة ٤٢١ قال ياقوت في معجم الأدباء في ترجمته: «قال الصاحب بن عباد فاز بالعلم من أصفهان ثلاثة: حائك وحلاج وإسكاف فالحائك هو المرزوقي والحلاج أبو منصور بن ماشده والاسكاف أبو عبد الله الخطيب بالريّ صاحب التصانيف في اللغة [١]».

وانصرمت أيام بني بويه وتلاها عصر بني سلجوق وفيه شبّ الأدب الفارسيّ وترعرع وقويت اللغة الفارسية، والأدباء الاصفهانيون مقيمون على ولعهم باللغة العربية ولهجهم بالأدب العربيّ، ويمثل لنا من بينهم الأديب اللغوي الحكيم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الاصفهاني [٢] مؤلف مفردات القرآن الكريم الهابط على أسرار اللغة العربية، الوحيد في بابه ومؤلف كتاب المحاضرات الذي جمع بين النفاسة والامتاع وسعة الاطلاع ومؤلف كتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة المطبوع بمصر سنة ١٣٢٤ الهجرية وكتاب تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين المطبوع ببيروت سنة ١٣١٩ الهجرية.

وعلى حين كان الشعر الفارسيّ ينتظر نهضة يقوم بها شاعر أصفهانيّ كما نهض الروذكي أبو عبد الله جعفر بن محمد في أواخر القرن الثالث، والثلث الأول من القرن الرابع للهجرة، ظهر بأصبهان مؤيد الدين فخر الكتاب والشعراء أبو إسماعيل الحسين بن علي الأصفهاني المعروف بالطغرائي صاحب لامية العجم التي فاقت لامية العرب للشنفرى وغيرها [٣]، وديوانه يغني الباحث عن الامعان في البحث عن مزاياه الشعرية، وشرح الصفدي للامية العجم

(١) معجم الأدباء ٦ : ١٠٣.

(٢) أملاني الأستاذ المحقق بديع الزمان فروزانفر الايراني أن الأستاذ المحقق محمد عبد الوهاب القزويني - رح - كان يرى أن الراغب الاصفهاني من أهل القرن الرابع.

(٣) راجع معجم الأدباء ج ٤ ص ٥١ والوفيات ١ : ١٢٥ ومختصر سماة الزمان ٨ : ٩٣، ٩٤.

بمجلديه الكبيرين يعرب عن فضل هذا الشاعر الفحل المقتدر وسمّو مقامه بين شعراء العربية ، وإن كان عصره متأخراً ، واستشهد في الربع الأول من القرن السادس للهجرة ، لأن الصفدي كان من كبار الأدباء وكبار المؤرخين فتوفره على شرح تلك القصيدة يدل على جلالتها ونفاستها وروعتها الفنية .

وفي القرن السادس للهجرة وما يليه لم تغيّر حدّة اللغة العربية ، ولا ضعفت الرغبة العارمة بأصبهان في اللغة المذكورة ، ويمثل هذين الزمنين أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني الملقب بعماد الدين الكاتب ذو الملكتين البارعتين النثر والشعر ومؤلف الكتب النفيسة الجليلة الفائقة الرائقة في الأدب والتاريخ ، فضلا عن براعته في فقه الامام الشافعي[1] وكتابه الخريدة أعني خريدة القصر وجريدة العصر أجلّ مرجع في سير شعراء القرن السادس خاصة ، على اختلاف البلاد والأقطار العربية والاسلامية ، وهو كتاب حافل عظيم الحجم والأجزاء ذكر فيه شعراء إيران والعراق وشمال إفريقية والأندلس ، وقد طبعت منه أجزاء ولا تزال أجزاؤه الأخرى في طريق المطابع وفي المطابع ، وكتاب الخريدة هو مرجع مؤرخي الأدب العربيّ للعصر المذكور ، لا يستطيعون عنه حِولا ، وكتبه الأخرى الفتح القسّي في الفتح القدسيّ الذي ضمنه تاريخ فتح صلاح الدين الأيوبي لمدينة القدس سنة ٥٨٣ وما قبله وما بعده ، هي من أجلّ التواريخ وأصدقها لهجة وأقواها حجة وكذلك كتابه البرق الشاميّ في حروب صلاح الدين عموماً والحروب الصليبية ببلاد الشام خصوصاً ، وتاريخ بني سلجوق ، ونصرة الفترة وعصرة الفطرة الموجود منه نسخة بدار

(٢) راجع الجامع المختصر « ٩ : ٦١ ـ ٦٤ » ومختصر مرآة الزمان « ٨ : ٥٠٤ ـ ٥٠٨ » والوفيات « ٢ : ١٨٨ » وتلخيص معجم الالقاب في الجزء الرابع في لقب « عماد الدين » والتكملة لوفيات النقلة للمنذري « نسخة المجمع المصورة ، الورقة ١٩ وتاريخ الاسلام للذهبي « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ١٥٨٢ الورقة ١٠٥ » ومختصر معجم الأدباء « ٧ : ٨١ ـ ٩٠ » ، ومقدمة الجزء الأول من خريدة القصر بقلم الأستاذ محمد بهجة الأثري .

الكتب الوطنية بباريس ، واختصره قوام الدين أبو إبراهيم الفتح بن علي البنـــداريّ الاصفهاني وسماه (زبدة النصرة ونخبة العصرة» وهو مطبوع ، وقد توفي العمادالاصفهاني بدمشق سنة ٥٩٧ بعد أن زاد في ثروة الأدب العربي والتاريخ الاسلامي زيادة جعلته من عظماء المؤلفين فيه على اختلاف العصور بله رسائله الاخوانية ورسائله الديوانية وديوان شعره .

وعاصره معاصرة التلميذ للأستاذ قوام الدين أبو إبراهيم الفتح بن علي بن محمد بن الفتح ابن أحمد بن هبة الله البنداري الأصفهاني الأديب المنشئ ، ويغنينا في إيجاز سيرته كمال الدين ابن الفوطي في كتابه تلخيص معجم الألقـاب في الجزء الرابع منه فقد قال بعد ذكر لقبه واسمه وأسماء آبائه ونسبه على النحو الذي ذكرته : « أحد فضلاء الدهر ونبـلاء العصر ، نثره كوشي البرود ، ونظمه كنظم العُقود وسلافة العنقود ، دخل بلاد الشام وكان من تلامذة عماد الدين الكاتب (كذا) وكان كاتباً سديداً وترجم كتاب شاهنامه من نظم الفردوسي الطوسي لأجل الملك المعظم عيسى بن العادل ، رأيتها بخطه وانتخب كتاب البرق الشامي في كتاب سماه (سنا البرق الشامي) وانتخب كتاب نصرة الفترة وعصرة الفطرة للعماد في كتاب سماه (زبدة النصرة ونخبة العصرة) وله أشعار ورسائل وكان مولده في منتصف شعبان سنة ٥٨٦ وفارق وطنه [أي أصفهان] وأقام بدمشق سنة أربع عشرة وستمائة وكانت وفاته بدمشق في شهر ربيع الآخر سنة ٦٤٣ » . وترجمته لأقسام من الشاهنامه قد نشرها الدكتور عبد الوهاب عزام المصري ، وقد أشرت إلى طبع زبدة النصرة ، وله كتاب « تاريخ بغداد » وجدنا منه الجزء الأول بدار الكتب الوطنية بباريس أرقامه ٦١٥٢ من العربيات وتاريخ نسخه سنة ٦٣٩ بدمشق وفيه نقصان ، وكانت وجهة البنداري الترجمة من الفارسية الى العربية وهو الأمر الذي نريده. وحل عصر مصلح الدين سعدي الشيرازيّ الشاعر الفارسيّ الذي إن لم يكن شمساً في سماء الشعر الفارسي فهو قمر من أقمارها الزاهرة الباهرة المبدرة ،

وقد عاصر مصلح الدين السعدي الدولة العباسية والدولة الايلخانية المؤسسة في غربي إيران والعراق وفي بلاد الروم المعروفة بآسية الصغرى عند الجغرافيين الغربيين ، وقد انتشرت اللغة الفارسية في عصر الدولة الايلخانية انتشاراً واسعاً ، واستبدّت بالدواوين والأواوين للكتاب والوزراء ، وتضاءلت قبالتها اللغة العربية ، وأتقن الملوك الايلخانيون المتأخرون لغة الفردوسي حامل مشعل الشعر الفارسي بعد الروذكي العظيم ، الذي أشرت اليه آنفاً في هذا الحديث ، واستفحل الشعر الفارسي ، وصار أنس المجالس ، ومتعة الأديب والدارس ، وتحفة المحاضرات والمحاورات ، وملحة المخابرات والمنابآت ، إلا أصفهان فانها ما زالت أيامئذ تصور عواطفها بالشعر العربي الذي يمثله في عصر هذه الخضرمة بين الدولتين العباسية والايلخانية نظام الدين الاصفهاني الذي هو الطرفة الأدبية في هذا الحديث وهذه المحاضرة .

ونظام الدين الأصفهاني الشاعر من الشعراء الخالدي الآثار الذين لم ينصفهم التاريخ فمؤرخو الأدب الفارسي أهملوه لأنه سار على السنة الأصفهانية في التزام الأدب العربيّ ، ومؤرخو الأدب العربي أغفلوه لأنهم لم يخالطوه ولا اجتهدوا في تقصي أخباره لبعده عنهم ، أو لقلة عنايتهم بأخبار الشعراء ، في ذلك العصر المضطرب السياسة ، المرهب الحكم ، الكثير سفك الدماء البشرية ، الساقط تحت وطأة الياسا قانون جنكيزخان ، ذلك القانون الماحق الساحق ، الغريب الرهيب ، المستفحل بأحكام اليارغو أي المحكمة الجنكيزية التي لا تبقي ولا تذر ، وتعدّ البشر كالبقر ، لاجرم عفى الزمان على ذلك القانون وأحكامه ، وصار من أحاديث القرون الخالية .

ومجموع نظام الدين الأصفهاني يسمى «ديوان المنشآت» استعارة من « الجواري المنشآت كالأعلام » ومنه نسخة اطلعت عليها في دار الكتب الوطنية بباريز أرقامها « ٣١٧٤ من العربيات » ويظهر من مقدمته أنه أهداه إلى شمس الدين محمد بن محمد الجويني صاحب ديوان

الممالك على عهـــد هولاكو وعهد ابنه أحمد تكوار ، وهو يقول فيها : « وهذه اللمعة موسومة بشرف إيوان البيان في شـرف بيت صاحب الديوان ، ولو أتيح طول العمر لي بارخاء ، وَهبٌ من نسائم قبول الحضرتين رخاء ، أخذت في وضع كتاب في أحوال هذه الدولة » . وجاء في أوائل الديوان « قال مولانا أقضى القضاة أفصح العرب والعجم نظام الدين القاضي يمدح المستنصر بالله أمير المؤمنين وأنفذها من أصفهان إلى بغداد :

لاُموا ولو بهمُ ما بي لما لاُموا فيم الملامُ وبذلَ الروح قد راُموا ؟!

وفي أيام كينونتي ببارين وكون العلامة المؤرخ الأديب محمد عبـد الوهاب القزويني بها — تغمده الله برحمته — سألته عن نظام الدين الأصفهاني ، فكتب إلي كتاباً أرّخه باليوم الثامن من شهر آذار سنة ١٩٣٧ وهذا نص كتابه « حضرة الأستاذ العلامة (كذا) مصطفى أفندى المحترم » .

« تسلمت مكتوبكم الكريم المؤرخ بالخامس من الجاري . لم أظفر بترجمة القاضي لنظام الدين الأصفهاني صاحب شرف إيوان البيان في شرف بيت صاحب الديوان — الذي تصفحته أنا أيضاً في الأيام الماضية وتكلمت عنه مختصراً في مقدمة الجزء الأول من جهانكشاي لعلاء الدين الجويني — فيما بيدي من الكتب إلا في مؤلفين فارسيّين كلاهما من المآخذ المتأخرة بكثير عن عصره وكلاهما محتوياتهما ضئيلة عقيمة لا تسمن ولا تغني من جوع ، أحدهما تاريخ عام موسوم بحبيب السِّير لغياث الدين خواندمير الهروي المؤلف في حدود سنة (٩٣٠) والثاني مجالس المؤمنين للقاضي نور الله الشوشتري الذي تعرفونه حضرتكم ، ولكن لا توجد ولا كلمة واحدة في ذينك المأخذين مما يتعلق بتاريخ حياة القاضي نظام الدين المذكور أو سنة ولادته أو تاريخ وفاته ولا شيء من هذا القبيل أصلاً بل صاحب حبيب السير اقتصر على أنه كان من مُدّاح بيت صاحبي الديوان ثم ذكر بعض أبيات له في مدح شمس الدين الجويني . والقاضي نور الله ذكر علاوة على ذلك أنه كان من

الشيعة الخلّص ثم أخذ يسرد مقطعات وغيرها دالة على تشيعه بزعمه أو على الحقيقة ، هذا غاية ما في الترجمتين هاتين اللتين كما ترون حضرتكم لا تستحقان أن تسمّيا ترجمة حال بالمعنى المصطلح » اهـ .

وأحسب والحسبان قريب من الظنّ أن ابن الفوطيّ ترجمه في كتابه الذي قدمت ذكره أعني تلخيص معجم الألقاب إلا أن جزء النون الذي هو الجزء السادس غير معثور عليه حتى الآن ، وقد نقلت آنفاً اشارة في عبارة تشير إلى مدحه الخليفة المستنصر بالله العباسي وقد توفي كما هو معلوم سنة (٦٤٠ هـ) وجاء في الورقة ٨٣ من الديوان ما هذا نصه : « وقال يذكر وقعة أصفهان وكانت في سنة إحدى وثلاثين وستمائة معارضاً لقصيدة العميد » . وورد في الورقة ٨٥ « وقال وكتبه على دار بهاء الدين محمد بن صاحب الديوان » وقد جاء في الأبيات قوله :

لستمائة وثمانين عاماً أعاد العمارة بعد انهدام

فعلمتُ أن سنة (٦٨٠ هـ) كانت من سني عمره وكان حياً فيها ، وبهاء الدين محمد بن شمس لدين صاحب الديوان كان والياً على أصفهان في ذلك الزمان ، ذكره مؤلف التاريخ المجهول الذي قمت بطبعه وسميته باقتراح بعض الباحثين « الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة » الذي هو لابن الفوطي ثم تبين لي بالتأكيد والتحقيق أنه ليس بالحوادث الجامعة ولا يصح أن ينسب الى ابن الفوطي بوجه من الوجوه ، وأن القول الراجح عندي أنه جزء من تاريخ « محب الدين أبي العباس أحمد بن يوسف بن أحمد بن أبي بكر العلوي الكرجي ثم البغدادي المترجم في تلخيص معجم الألقاب بما هذا نصه : « محب الدين أبو العباس أحمد بن يوسف بن أبي بكر العلويّ الكرجي ثم البغدادي المقرىء ، من العلماء الثقات والحفاظ الاثبات ، قرأ القرآن الكريم على والده وكان كثير التلاوة عارفاً بالتفسير والقراءات قال أنشد أبو علي هلال بن المظفر الزنجاني لنفسه :

أودعته سرّي مستكتماً فبثّه الأحمق في الحال
من يضع السرّ لديه فقد أودع ماءاً فوق غربال

وكان كثير المطالعة عارفاً باللغة ورتب شيخ دار القرآن المعروفة بالبشيرية على ساحل دجلة ، بالجانب الغربيّ واشتغل عليه جماعة من الأعيان ، سألته عن نسبه فذكر أنه ينتمي إلى الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب [ع] وسألته عن مولده فذكر أنه ولد في العاشر من جمادى الآخرة سنة سبع وخمسين وستمائه ، وصنف تاريخاً على السنين وتوفي في صفر سنة إحدى وعشرين وسبعمائة ، وكان قد صلى ولم يعلم بموته غير زوجته ودفن بباب حرب » . اهـ ودفنه بمقبرة باب حرب يشعر بأنه كان علوياً متحنبلاً . لأن مقبرة باب حرب مقبرة الحنابلة منذ أواسط القرن الثالث للهجرة .

أجل ذكر مؤلفه بهاء الدين محمد بن شمس الدين محمد الجويني ، وقد جاء في سيرته من ذلك التاريخ المشار اليه في حوادث سنة ٦٧٨ : « وفيها توفي بهاء الدين محمد بن الصاحب شمس الدين المذكور ، وكان ملكا بأصفهان ظالماً سيىء السيرة ، متفنناً في الظلم ، جدّد القتل بالقنارة التي كان وضعها البساسيري في أيامه وقد نسيت لطول العهد بها » . وقال في حوادث سنة ٦٩٤ : « وتوفي نور الدين عبد الرحمن بن تاشان بعد قتل فخر الدين مظفر ابن الطراح بمدة شهرين وكان يسلك نور الدين في أيام حكمه قاعدة بهاء الدين بن شمس الدين الجويني في التمثيل وشناعة القتل وأحدث القنارة بواسط كما أحدثها بهاء الدين في أصفهان وكانت قد نسيت من عهد البساسيريّ » .

وباسم بهاء الدين الجويني هذا ألّف الشيخ عماد الدين الحسن بن علي الطوسي المعاصر لنصير الدين الطوسي كتابيه « الكامل البهائي » في مناقب أهل البيت ، و « الأربعين البهائية » في فضائل أمير المؤمنين عليه السلام ، ويبقى اشكال في التاريخ الذي ذكره القاضي نظام الدين الاصبهاني لعمارة دار بهاء الدين الجويني وهو سنة (٦٨٠) مع أن وفاة

بهاء الدين كانت سنة ٦٧٨ والظاهر أن الضرورة الوزنية حملت القاضي على التساهل .

وقد بحثت عن اسم نظام الدين الأصفهاني في كتاب « تاريخ الأدب في إيران من الفردوس إلى سعدي » تأليف أدوارد گرانفيل براون المستشرق الكبير وترجمة الأستاذ إبراهيم أمير الشواربي ، وفحصت عنه في الفهرست فلم أقع له على ذكر ما عدا وهما حدث فيه مع أن هذا العالم ذكر جماعة من الشعراء الفرس الذين نظموا بالعربية ولم ينظموا بالفارسية ذكرهم لسبب من أسباب التأليف . ولذلك الاخفاق وتلك الخيبة أجتزىء بذكر جملة من أشعار نظام الدين الفائقة الرائقة ، قال يمدح الخليفة المستنصر بالله :

لاموا ولو بهمُ ما بي لما لاموا ... فيمَ الملامُ وبَذْلَ الروح قد راموا

قاسوا بشأنهمُ شأني وما علموا ... أني سهرتُ اشتياقاً إذ همُ ناموا

ساموكَ صبراً عن الأظعان غادية ... والقتل صبراً لعمري دون ما راموا

تعجبوا من دموع سحَّ وابلُها ... كأنهم بَرقَ ذاك الثغر ما شاموا

والغيمُ من نفسَ العشاق مرتكم ... وبالحنين يُرى للرعد إرزامُ

واهاً لبارق ثغر خاطف مُهَجاً ... لولاه لم ينقشع للهجر إظلامُ

تُريك تلك الثنايا بالعقيق حمىً ... من دونه وقع العشاق إذ حاموا

نفسي فدى صَحن خدٍ من ملاسته ... زلّت عليه لنمل الخطّ أقدامُ

يأبى لرقة قلبٍ أن أقبّله ... كيلا يمسَّ ضعاف النمل آلامُ

هذا وقد سفكت يا للرجال دمي ... عيناه ما ساءَه للصبّ إيلامُ

نعم جلا لحظه سيفاً فان سبق السيف العواذلَ لم يعلَقْ به ذامُ

قلبي وطرفك والأرواحُ دانيةٌ ... قد حالفتها على العِلاّت أسقامُ

وعلّة الضمّ حقاً بيننا وجدت ... فلمْ رمى الجمعَ بالتفريق لوّامُ

ماذا الجفاء وفيم الصدُّ يا سكني ... والعمرُ كالنوم واللذات أحلامُ ؟!

قد غالط الدهرُ فاذكر سوء صنعته ... فللزمان بسرّ البين إبهامُ
هذا الربيع وثغر الصبح ذو شنبٍ ... والمزنُ باكٍ ووجهُ الأرض بسّامُ
والصبح سلّ على الظلماء صارمه ... فالوقت سيف وكم نابتك أيامُ ؟
والريحُ هزّت مهود الورد ناعمة ... كيما ينبّه وجه الصُّبح نوّامُ
ومدّ أيديها الأغصانُ راقصة ... ففاح عن نشرها المسكيُّ أكمامُ
تناهبت بالرُّبى خيلُ الصَّبا فعلا ... نحورَها من صنوف الطيب أقسامُ

أطلق عنان الهوى واركب هواك وقُمْ
نُسرجْ كميتاً لها للعقل إلجامُ

أنضيتُ نفسي بسوط العزم أقرعها ... فالآن حُقّ لخيل الطبع إحجامُ
كم يجمح الطبعُ والأيام تكبحهُ ... عُنفاً وما لمرام الحرّ إتمامُ
دهري حَرون ويكفيني رياضتهُ ... من سوط عزم إمام الحق إشمام
مستنصر في ضمان الله نصرته ... دارت كما شاء للأفلاك أجرام
والشهب في دم من عادى غمسن يداً ... ينبيك كفٌّ خضيب مَدّ بهرام
له الملوك على الأذقان ساجدةً ... كما لهادي البرايا خَرّ أصنام
في كلّ واد له صيت يهيم كما ... في كل واد عداه خشيةً هاموا
يبلّ غُلّهَ عافيه ببلّتها ... فبين جدواه والآمال أرحام
كما يقوم بنظم الكون أربعة ... غدت له لنظام الأمر قوّام
نار وماء وجوّ والثرى وكذا ... بأس ولين وألطاف وأحلام
قل للخوارج موتوا في ضلالتكم ... فانما الدين عند الله إسلامُ
هذا ابن عم رسول الله طاعته ... فرض وفيه لأنف الكفر إرغام
يطيعه من أطاع الله متقياً ... ومن عصى فعليه النصّ إلزام

وفي « أولي الأمر » قول الله حجتنا ... وهم أئمتنا بالحق قد قاموا

أرى الخوارج مذ نامت جدودهم ... بها لسيفك مثلَ الطيف إلمام

قد غرّهم طول إمهال وعن كثب ... يظلّهم كسود الليل أعلام

نعم سترفع في القتلى عقائرهم ... إذا تداعوا وما للسيف إذمام

قد أثمر السعي في كيد العدى فعلى ... أيدي عبيدك منهم يُقطف الهام

كم قلت إذ قيل ضاهى النمل عدتهم ... وما لهم عن لقاء القرن إحجام

يا أيها النمل لا تعدوا مساكنكم ... ومن سليمان لا يحطمك إقدام

سار بأرعن زحافِ الجبهات ترى ... بعصر من خوفهِ تزجُّ أهرام

خيل صيام تُصلّي الريح إن سبقت ... يحثها لاقتحام الروع مِقدام

لو سابق الدهر لاستدراك نائبة ... لرُدّ مما طواه الدهرُ أعوام

إن أرعدت بصهيل فالبروق ظبىً ... وكالحيا من دم المُرّان مِشجام

مظلومة الأرض تشكو ثقل وطأتها ... كما الهضيمة تلقى الدهر أهضام

خطّت سطوراً صفوف الجيش رائعة ... وللقنا والظبى نقط وإعجامُ

فافتضّ عذرة فتح صارمٌ ذكرٌ ... جُرح العدى بعده ما كاد يلتام

حجاً يرى أم جهاداً سيفه فغدا ... دماً يحلّ وبالتجريد إحرام

ككوكب الرجم منقضاً به صعقت ... جن سمت في ظلام النقع عُرام

هذي الشجاعة أنست ما أدلّ به ... في العرب عمرهم والفرس بهرام

هذا وكم ضج بالزوراء ذو لجبٍ ... من صوته لصدى الأبطال إصمام

يود لو خرجت يوماً مراسمه ... فتستطي كاهل الأقدار أحكام

فيستخف بغاث الطير جارحه ... ويفرس الثعلب الروّاغ ضرغام

وللأمور مواقيتٌ مقدّرة ... والدهر عادتُه نقض وإبرام

يا حجة الله والحبل المتين ومَن ... في غير مرضاته الطاعاتُ آثام
إن تُملِ تابعة الجن القريضَ فلي ... في نظم مَدحك من جبريل إلهام
وترت عود بناني مفصحاً فدع العودَ الموتَّر منه اشغال إبهام
فهاكها درّة بل بحر فائدة ... لدى العقول ببذل الروح تستام
أخزيتُ في جنبها قول ابن فورجةٍ ... « هذي العلا لاحُبيلات واغنام »
من رام باللفظ والمعنى مساجلتي ... خانته للسَّجْل أكرابٌ وأوذام
وبالدعاء أرى ختم الكلام فما ... كادت توفيك حق المدح أفهام
بعدلك الأرض قامت والسماء فقم ... بالحق ما قام بالأرواح أجسام (١)

وقال يمدح وزير دار الخلافة والظاهر أنه نصير الدين أحمد بن الناقد وزير المستنصر بالله الشافعي المدفون في الكاظمية كما جاء في التواريخ :

أهاب بسرّ القلب شوقي مناديا ... فلبّى بلا حرف وصوت مناديا
نعم في إهاب الروح نجوى خفية ... طواها عن الأغيار قلبي مواريا
ونقش على لوح الضمير لذكرها ... يدوم ولا نقش على الصخر باقيا
تمثل في عيني وقلبي خيالها ... فلا النار تفنيه ولا الماء ماحيا
ومما دهاني اليوم إنسان ناظر ... إليك اغتدى في الماء حرّان صاديا
ولم أعط نفسي من وصالك حقها ... ولم أتنجز من هواك الأمانيا
أتصبر نفسي عنك ياغاية المنى ... وما ازداد هذا الحبُّ إلا تماديا
حُرمتُ التلاقي ثم لم أرضَ هجركم ... فحرّم ما بين الجفون التلاقيا
فانسان عيني دون طيفك منشد ... « بنفسي من يخفى عليه مكانيا »

(١) ديوان المنشآت « نسخة باريس ، ٣٠٧٤ الورقة ٧ م .

وكم موعد بين الخيال وناظري ... جعلت له طيب الكرى متقاضيا

وليل قصير يجمع الطيب كله ... كما جمع اللفظ القليل المعانيا

أخال به ريطاً عليّ ممسّكاً ... تضمّن نشر الطيب منه المطاويا

طواه النوى عني ولم يطو ذكره ... وما فات مسك أخلف النشر ذاكيا

فأحببت ليل الهجر وهو يميتني ... فيالك إذ حاربت بالغدر وافيا !!

أضعت محبّاً لاشتياقك واجداً ... وبعت برخص في ولائك غاليا

وكنت إذا ما الهمُّ جاش بحارُهُ ... ندبتُ لها صبري فألقى المراسيا

أرى دوني الجهال حمراً هواملاً ... فأحمي لها في نار عزمي المكاويا

ولا بدّ للأغفال عن سمة النهى ... من الكيّ من داء الجهالة شافيا

سألقي على حبل الذراع مطالبي ... وإن لم أصل حبْل الجهول مداريا

وأمتاح أرواحاً بأرشية القنا ... أعاطي سجال الحرب قرني تساقيا

ولي في ضمان الدهر دين سينقضي ... بألسن بيض ينطلقن مواضيا

فما اشتقت غير السمر هيفاء تلتوي ... ولا شمتُ دون البيض برقاً يمانيا

ولم أرَ مثل النقع ظِلاً إذا حمى ... هجيرُ الوغى إذ سرت للفيء باغيا

أجود بنفسي للذوابل مُرويا ... ولا عذر لي إن لم أروّ الظواميا

فان يك كعب جاد بالنفس قبله ... ليُروي ظمآناً فسَنّ الأياديا

فكعبي أعلى في الندى فاسأل القنا ... فماء حياة قد منحت الصواديا

وأين ابن أروى عن فعالي وان يكن ... إذا هب ريح ينحر البدن شاتيا ؟

ألست إذا هبت لنصر رياحه ... نحرتُ ولا بدنَ الأضاحي الأعاديا

قلقت ولا مثل الوشاح فلم أدع ... لغير مكان الصدر يغشاه حاليا

فحثّ بسوط العزم همك إن يقف ... حروناً ينفض للمراح النواصيا

وأورد من الآمال هيماً خوامساً ... فثمّ ترى لُجّ المكارم طاميا
هناك هناك الجوّد درّ سحابةٍ ... وثمّ سماء الملك تجلو الدراريا
هناك ولا تلقى مجالاً لقادح ... ترى زند عزم المرء بالنجح واديا
وتعبَق أخلاق على نار عزمةٍ ... ولا عرفَ عود مسّه الجمر ذاكيا
ويرعى ذمام المكرمات ودونه ... ترى كل عُذريّ العلاقة ساليا
وتأرجُ من طيب الشمائل روضة ... يجاذبُ فرعيها النسيمُ مُناغيا
ويحمرّ خدُّ السيف بالفتح ظافراً ... ويهتز عطف الرمح للنصر لاقيا
ولا تبهظ الأعباء مستضعفاً سوى ... عليل نسيم أنحل الصبّ وانيا
وأغمد للعدل الصوارم رهبةً ... سوى سيف برق يقطع المحل غاديا
أعاديك كالأقلام فوق رؤوسهم ... مسوّدة منها الوجوه كما هيا
حنين ودمع والنحول وصُفرة ... وحزّ رقاب إذ يخضن الدياجيا
رؤوس زهتها خفة فتطايشت ... تحس من السوداء ما ليس خافيا
وعزمُك ملءُ الأرض إن يُضح لُجّةً ... يغرّق في بحر الزّماع الجواريا
أمغتنم العلياء دعوة فاضل ... خطوب الليالي أنهبته الدواهيا
أفي الحق أن أضحى وظلك وارفٌ ... وأرضى برنقٍ دون شربك صافيا
وألزم بيتاً كالرويّ مؤخراً ... وسَيَّرَ كالأمثال فكري القوافيا ؟!
أما من بني الدنيا كريم بعونه ... أُسرُّ وليّاً أو أسيء مُعاديا ؟
نعم ركدت ريحُ العُلى وتصوّحت ... رياضُ الأيادي واغتدى الجهل شافيا
فلولا كريم طبّق الأرض بالندى ... نعينا اللُّهى ثم النُّهى والمعاليا

وقال يمدح بهاء الدين بن شمس الدين الجويني ملك أصفهان وبدأها بالغزل والنسيب على العادة القديمة :

حمل النسيمُ حكاية الأشواق ... أرأيتَ ضعف وسائل العشاق ؟
سفر الصَّبا ما بينهم فتكاسلت ... ومع الحديث ترق للمشتاق
وعلى شمائلها اتكال ذوي الهوى ... إن الصفاء مظنة الاشفاق
لم أقط حقك يا ريح الصَّبا ... إن أقرهنَّ عُلالة الأرماق
قلبي وطرفك والرياح مريضة ... فمن الطبيب وهل تُرى من راقي؟

وقال في رسالة الخيل من إنشائه إلى صاحب ديوان الممالك شمس الدين محمد بن الجويني قصيدة أوائلها :

يا حادي الإبل البطلاح يثيرها ... من أصفهان إلى رُبى بغداذِ
إن هبَّ ريحُك فاغتنم فرص المنى ... واسبق وفود الريح بالاغذاذ
واقصد بزوراء العراق معظماً ... لبني الزمان تراه خير ملاذ
شمس الممالك غرّة الدنيا الذي ... بعُلاه أجفان النجوم قواذي
مولى ملوك العرب والعجم الذي ... جرّت أوامرُه ذيولَ نفاذ

ومنها : ورسالةَ الخيل اقتضيت بديهةً ... وعلى سنابكها الخيول حواذي
أهديهم سبل الرشاد مكرّراً ... من أصبهان إلى ربى بغداذ

وله قصيدة في مناظرة السيف والقلم ، نظمها باشارة من شمس الدين الجويني ، والديوان موجود فلا حاجة الى الاطالة المؤدية إلى السآمة والملالة بذكر اكثر مما اخترناه .

مصطفى جواد